حوراء راغب حرب

حنين إلى شمس أبي



دار المحجة البيضاء


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

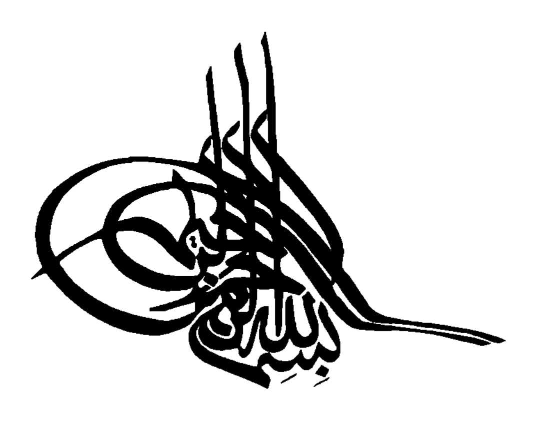
حنين
إلى شمس أبي

حوراء راغب حرب

حنين (قصص)

إلى شمس أبي

دار المحجة البيضاء



إهـــداء

إلى من منحني الحب والحنان في غيابه كما في حضوره،

إلى من علّمني كيف يكون الإنسان حاضراً مؤثراً في بيته، مجتمعه، أو أي مكان حلّ فيه يوماً،

إلى من تدفّقت دماؤه غزيرة هدّارة تعلِّم الناس أسرار المحبة والإخلاص،

إلى والدي الحاضر في أعماق روحي.

وإلى التي أشعلت عمرها قنديلاً ما زالت تنير به دروبنا.

إلى التي نسجت من آلام قلبها ومن حزن أيامها لنا أشرعة الخلاص.. نستعين بها حين تداهمنا العواصف.. وتتلاطم حولنا الأمواج..

إلى التي ما زال نور عينيها هو النجم الذي يهدينا سواء السبيل..

إلى المجاهدة الصابرة التي أكملت المسيرة، فأعطتنا حنان الأم ورعاية الأب.

إلى والدتي العظيمة التي أتمنى لها دوام الصحة والعافية والعمر المديد، وأسأل الله تعالى أن يعيننا على أداء حقها وشكرها.

تقديـم

نائب الأمين العام لحزب الله

الشيخ نعيم قاسم

الحمد لله على هديه، والصلاة والسلام على هداته الميامين محمد وآله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه المنتجبين، وحَمَلَةِ هذا الدين من العلماء الأعلام إلى قيام يوم الدين.

عندما وصلني بريدي اليومي وفيه مغلّف من راغب راغب حرب، وفي داخله مجموعة قصص عن الشهيد السعيد الشيخ راغب حرب(قده)، وَقَّعتْ مقدمتها المشتاقة إلى والدها حوراء، لم أفكر قبل أن أتخذ قراري، بل صمَّمت على كتابة المقدمة قبل أن أطَّلع على المضمون، لأنَّ الكتابة عن

محبوب الناس الذين عرفوه أو تعرّفوا عليه، الشهيد الشيخ راغب حرب(قده)، والكاتبة فلذة كبده ابنته حوراء، فلعلي أقدِّم بعضَ وفاءٍ للشهيد القدوة.

وما إن شرعت بقراءة القصص، حتى شعرت بحركات وكلمات ومواقف الشيخ وكأنَّه حاضر بطيفه، يُعيد إلى الذاكرة مشاهد نشاطاته في جبشيت، ومع أهله ومريديه، وحيث حلَّ ثم ارتحل.

كتبت الأخت حوراء قصصاً قصيرة، واقعية ومعبِّرة، ببساطة في اللغة، تستحضر سماحة الشيخ وبساطة حياته، ولكنَّها تحمل عمقاً تربوياً هادفاً يتسلَّل إلى القلوب من دون تكلُّف، ويوضِّح الموقف بلا تعقيد. أرادت الابنة أن تستحضر ما طبعه والدها في شخصيتها، وهي واثقة من تأثيره على من يتعرف على هذه المواقف، التي تجاوزت دوره كأب لأطفاله، فهو الهادف دائماً أن يكون مبلّغاً لرسالة الإسلام المحمدي الأصيل، هكذا كان في حياته، نوراً لا يحجزه شيء، وهكذا هو مستمر بعد شهادته، نوراً يشع عبر الزمن.

من كلام لأمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد النخعي:

«يا كُميل، هلك خُزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر. أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة».

إننا نفخر بهذا النموذج القدوة، وبكل النماذج الطاهرة للعلماء والمجاهدين، ونحيِّي تسطير قصصهم ليتعلم ويتربى بها كلّ جيل، ومَنْ أولى من الابنة المؤمنة حوراء في تسليط الضوء على بعض جوانب حياة شيخ الشهداء؟

١٧ ربيع الأول ١٤٣٠هـ

الموافق ١٥/ ٣/ ٢٠٠٩م

مقدمة

أبي الغالي . .

حاولت كثيراً أن أكتب شيئاً عن عظمتك، عن إيمانك وطهرك، عن جهادك وصلابتك، عن شهادتك، وعن حبك لدينك ومجتمعك ووطنك. ولكنني ما استطعت أن أكتب حرفاً واحداً عن كل ذلك لأن قلبي ليس فيه سوى الحنين إليك، أحنُّ إلى الشمس المشرقة من جبينك، إلى الطهر في عينيك، إلى عطفك وحنوّك، وإلى بسمتك التي كانت تملأ دنياي نوراً واطمئناناً. لذا لم يسعني إلا أن أكتب بعض الذكريات التي ما زالت تسكن في حنايا القلب، ذكريات لحظات سعيدةٍ معك، اختطفناها هنيهات، رغم انشغالك بهموم الناس، وآلام المستضعفين، وجراحات الوطن.

ابنتك المشتاقة

حـــوراء

على أعتاب الذكريات

على تلال الشوق أجلس وحدي، تحملني الآلام إلى عالم بعيد حيث ذكريات الماضي. إلى ذلك البيت الذي كانت ترفرف السعادة بين جدرانه، ويحرسه الحب والأمان. رأيتُني هناك طفلة لم أتجاوز العاشرة من العمر، على سطح الدار ألعب مع أخواتي ورفيقاتي، يظللنا غمام البراءة ولا يشغل بالنا سوى اللعب.

فجأة أطلّ علينا والدي كالطود الشامخ، أسرعنا نحوه وتعلقنا بعباءته، فسلم علينا وراح يفاكهنا ويلاطفنا، وكلما تكلم مع واحدة منا، زاحمتها الأخرى علّها تخطف من شفتيه كلمة تميزها.

سألنا أبي: «حوراء هل صليتِ يا ابنتي؟».

أجبته: «بلى يا أبي».



التفت إلى زهراء: «وأنت يا زهراء؟» (زهراء لم تبلغ التاسعة بعد ولكنه يريدها أن تعتاد على الصلاة).

«كلا» أجابت زهراء.

فأمرها بصوت حنون: «إذن يا عزيزتي، انصرفي وأدي صلاتك».

زهراء: «انتظر يا أبي ريثما أنهي دوري من اللعب».

أبي: «اذهبي وصلّي، وأنا أكمل دورك في اللعب».

وقع هذا الكلام في مسمعي موقع السحر الإلهي في عصا موسى. شمخت برأسي عالياً، وامتلأت روحي زهواً، تفاخرت على صديقاتي بخيلاء فمن منهن تملك والداً كوالدي، صديقاً كصديقي.

لعبنا معاً وضحكنا ضحكات خلنا أنها لن تنتهي، ولكن الضحكات انتهت وتلاشت، منذ أفولك سيدي.



لقد عاد الملاك

كنت عائدة من المدرسة سيراً على الأقدام، كأقراني من أبناء المستضعفين، الذين ليس لهم قدرة مادية على الرفاهية، كنت أشعر بالتعب، فالطريق طويل والمحفظة ثقيلة، والهواء يحمل في طياته بعض البرودة. كنت أمشي بتثاقل، وأشعر بأنّ الطريق لن ينتهي.

آه وأخيراً وصلتُ إلى مفرق بيتنا، تناهى إلى مسمعي صوت أخي الصغير يحدث شخصاً ما (لم أره ولم أر أخي) سمعته يقول: «لقد جاء أبي». يا إلهي ماذا أسمع... تراقص قلبي الصغير بين أضلعي، ما عدت تعبة، ما عادت المحفظة ثقيلة، وما عدت أشعر بالبرد. أحسست وكأنني ريشة صغيرة تحملها النسمات، ركضت وأخواتي، تسابقنا نريد الوصول إليه، وكنا نرنِّم بصوت واحد: «جاء أبي من إيران»؟



كان لا يزال نائماً يستريح من عناء السفر، أيقظه صوتنا، فتح عينيه وكأنهما نافذتان تطلاّن على جنّة الفردوس، والبسمة عريضة تنير ما بين المشرقين، فتح ذراعيه واحتضننا بأجنحته الكبيرة. واتسع صدره الرحب لنا ولكل ما نريد قوله، وكيف لا وهو صدر للأمة.. كل الأمة.

جلس على حافة السرير، وجلسنا معه فواحدة تتكئ على ركبته اليمنى وأخرى تتكئ على اليسرى، وثالثة تجثو أمامه.. وأحمد متسلق إلى القمة يجلس على كتفيه، وأنا أجلس إلى جانبه أنظر إليه.. خلته ملكاً يجلس على عرشه وحوله الأزهار صامتة تستمع بشغف إلى نغمات صوته. وهو يتكلم

يحدثنا عن رحلته إلى إيران وما جرى فيها من أحداث، وتفاصيل تشدّنا (فنحن قليلاً ما تهمنا اللقاءات السياسية أو الدينية وكذلك ما قاله الإمام بشأن الأوضاع الراهنة في لبنان)، كل ما يهمّنا كيف هي الطائرة؟ ماذا رأيت في إيران؟ هل كنت تجلس إلى جانب الإمام؟ كيف هو بيت الإمام؟ وكيف هو الإمام؟ هل هو مثل الصورة الكبيرة المعلّقة على الحائط؟ وماذا قال لك الإمام؟ هذه هي التفاصيل الهامّة بالنسبة لنا، شأننا شأن الكثير من الأطفال.

ـ «قال لي الإمام سلم لي على حوراء»[١].

ـ «ياي»؟!!.. «بيعرفني الإمام»!!

حزنت زهراء[٢]. «لا تحزني فقد قال الإمام سلّم لي على زهراء». انفرجت أساريرها، فقطبّت سميّة[٣]، «وقال الإمام سلم لي على سميّة» رفرفنا بأجنحة القلوب وسألنا بتعجّب: «ما هذا الإمام الذي يعرف كل شيء ويعرف كل الناس»؟!!

ثم أردف قائلاً: «وأحضرت لكم ألعاباً من عند الإمام».

---

(١) ابنته الكبيرة.

(٢) ابنته الثانية.

(٣) ابنته الثالثة.

(دائماً كان يسدي له أصحاب السفر نصيحة بأن يحمل الألعاب من بيروت أو سورية فهي أجمل وأقل ثمناً، فكان يصرّ على أن يحمل الألعاب من بلد الإمام لتكون من عنده).

هكذا غرس في قلوبنا عشق الإمام، رياحين أزهرت سريعاً.

أبي رياحينك ما زالت مزهرة، رغم أن السحابة التي كانت ترويها رحلت.. ورحل الإمام، رحل الإمام بجسده، وكذلك أنت بجسدك رحلت وبقيت فينا، أحييت بروحك أجساداً كانت ميتة، ورويت بدمك رياضاً تنوّعت فيها أزهار الحب والحرية وراحت تُنثر باقاتِ فوق رؤوس المنتصرين.



أغنيات على الطريق

اليوم فرحتنا لا توصف، إنه يوم العيد، عيد خاص بي وأخوتي، فقد استعار أبي سيارة[1] وسيأخذنا معه في نزهة، سألت أمي: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

فأجاب: «لدي عمل مع بعض الأخوة في أرزون، فكرت أن أصطحبكم معي».

لبسنا ثيابنا وصعدنا إلى السيارة بسرعة، نريد أن ننطلق ونسابق السحاب، مخافة أن يعيد أبي طارئ عن قراره (فلطالما فاجأنا القدر بأُناس يأخذونه منا، لا ألومهم ولا أحقد عليهم، فهم متألمون، وهو الدواء).

وانطلقنا، تصحبنا همساته الرقيقة: «توكلنا على الله، اللهم صلِّ على محمد وآل محمد ويسِّر أمورنا ببركتهم».

(١) كان والدي يملك سيارة متواضعة جداً، ولكنه باعها حين بدأ ببناء المنزل.



في الطريق جذبتني المناظر الخلابة، فهذه أول مرة أرى فيها هذه المناطق، واللوحات في الخارج ساحرة، خصوصاً في أيام الربيع، حقاً إن بلادنا رائعة الجمال.

أعادتني نغمات صوته الملائكية إلى عالم الواقع يسألنا: «لماذا أنتم صامتون يا أولاد، هيا لننشد معاً» وبدأ ينشد:

أحب الصلاة وأشتاقها ... وتسمو بروحي آفاقها
أيا وقفة تستشف الوجود ... وتكشف للنفس درب الخلود
تعلمني أن درب الحياة ... بغير هدى الله درب كؤود

وعندما أنهينا قال: «هيا يا أولاد، لننشد خميني أي إمام»

خميني أي إمام خميني أي إمام ... أي مجاهد أي مظهر الشرف

وهكذا، كلما أنهينا أغنية كان يبدأ بأغنية، كان يغني معنا

ولم يكن يختار إلا الأناشيد ذات الصلة بالإسلام والعقائد أو القضية والثورة. وكان يصدح بصوته ليصل إلى عنان السماء، يتغلغل في أعماق شراييني دماً متدفقاً، يهتف بالحب إليه وما زال ذلك الصوت يهدر في أعماقي، كأنه قيثارة خرجت من دنيا الحكايات، تعزف لي ألحاناً ساحرة عذبة، رغم أن ألم الشوق لهذا الصوت لن يسكن.

وما زال أيضاً يهدر بين أودية الجنوب وتلالها، ينبض في قلب المجاهدين، فيشدّ عزمهم ويشحذ هممهم لإكمال المسيرة، وينشد معهم أغنيات الحرية والنصر.



فتى الإسلام



جاء أبي اليوم إلى البيت بعد غياب طال، حتى خلنا الغياب طويل كأنه دهور.

جاء يصدح بالصوت الحنون منادياً أخي أحمد ابن الأعوام الأربعة حينها «يا فتى الإسلام.. يا فتى الإسلام» (فقد كان يلقب كل واحد منا لقباً عملاً بسُنة رسول الله ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام. بنت الإسلام، مجاهدة، بنت الهدى، بنت الرسالة، فتى الإسلام، وبنت الإيمان). ركض أحمد إليه ارتمى في أحضانه مبتهجاً، حمله والدي على كتفيه، وهو يرفرف بيديه وكأنه يريد أن يطير. وبعد استراحة لم تدم طويلاً أراد والدي أن يخرج، تعلق به فتى الإسلام لا يريد مفارقته، فأخذه والدي معه، أجلسه في حجره على مقعد السيارة الأمامي وذهبا.



بعد ساعات عدة عاد والدي مبتهجاً فرحاً وسعيداً، ماذا حدث وما سرّ هذه السعادة؟ لم نعرف حتى قال لنا: «أوقفنا حاجز إسرائيلي فمد الضابط يده لأحمد مسلماً فعبس أحمد في وجهه ووضع يديه خلف ظهره، ما جعل الضابط يستشيط غيظاً ويقول حتى صغاركم تعلمونهم على عداوتنا؟!!» كان والدي يقصّ هذه الحادثة للجميع بحماس وفرح، وكأنه يريد أن يحمل أحمد فيطير به ملامساً أحضان الغيم جذلاناً مغرداً وفرحاً بولده المجاهد الصغير الذي كان له موقفاً من الصهاينة. وكان والدي كلّما تذكر الحادثة يحتضن أحمد بقوة ويضحك ويربّت على كتفيه مشجعاً، فقد أراده مجاهداً في صغره وكبره، وأراد أن يكون كل أولاد الجنوب فتية للإسلام.





همسة ملاك

ما زالت الذكريات تعيدني للوراء، إلى ذلك القصر الصغير المتواضع، أراني أجلس في المطبخ وتجلس أختي الصغيرة إصلاح[1] إلى جانبي تحدث أمي بأحاديث شتّى وهي منهمكة في عملها تصغي إليها تارة وتذهل عنها تارة أخرى لتعود إلى عملها وأفكارها. وفجأة شهقت أمي شهقة عالية، وفتحت عينيها على مصراعيها على إثر الكلام الذي قالته أختي، فقد قالت لها ببراءة: «أمي عندما تلدين صبياً أريد أن تسميه راغباً» (كان والدي حينها في إيران مسافراً) صرخت أمي قائلة: «لا تعيدي كلامك مرة أخرى»،

(١) أختي الرابعة.

ثم اغرورقت عيناها بالدموع، لم تفهم أختي سبب هذا الذعر من أمي، ولا أنا فهمته، لم نكن نعلم أن أعراف مجتمعنا تقول بأن إطلاق اسم الوالد على المولود فأل سيئ. فقد قالت أختي كلماتها من فرط حب أبيها العظيم، لدرجة أنها تتمنى أن يكون كل من في البيت راغباً، بل كل من الكون راغب. أو ربما كان صوت ملاك من ملائكة السماء نطق على لسانها، مبشراً بالشهادة.

وبعد أقل من سبعةِ أشهر تحققت نبوءة ذلك الملاك، وُلِدَ أخي الصغير... أسميناه راغباً لأن راغب الكبير قد رحل. وولد في ذلك العام عشرات.. مئات.. بل آلاف من الراغبين بالجهاد، والنصر، والشهادة. استطاعوا أن يطأوا العدو بأقدامهم، فدم راغب ما زال فيهم ثائراً غاضباً يغلي في عروقهم، يحثّهم على الجهاد، ويعدهم بالنصر المؤزر.



صفعة المحبة

خرجنا اليوم من المدرسة باكراً، ما عدت أذكر السبب، كل ما أذكره أننا وصلنا إلى البيت والمؤذن يصدح بصوته معلناً زوال الشمس، وكان والدي في المنزل عند وصولنا، فرحنا كثيراً بوجوده بيننا، فنادراً ما كنا نجده في البيت عند عودتنا من المدرسة، وما كدنا نسلم عليه حتى حضر بعض الزائرين، أو ربما بعض الأشخاص الذين يحملون معاناتهم إليه يبثون شكاويهم وآلامهم، وقبل أن يستقبلهم قال لنا: «لا تؤخروا صلاتكم، فقد حلّ الزوال».

دخل إلى ضيوفه وخرجت أنا إلى الخارج، أحاول أن أزرع بعض أغصان الورد التي أحضرتها لي صديقتي، وبعد حوالي الساعتين خرج، مرتدياً زيّه المحمدي، عباءته وجبّته، والعمامة البيضاء التي استعارت بياضها من طهر ذلك القلب الكبير، مشى قليلاً ثم التفت إلى الوراء وناداني: «حوراء، هل أدّيت صلاتك؟».

وقفت أمامه مترددة في جوابي، لا أدري ماذا أقول له، واحمرت وجنتاي خجلاً منه، وأجبته بتلعثم: كلا.

نظر إليّ بغضب وقال: «ألم اقل لك منذ ساعتين أن موعد الصلاة حان؟».

وقفت أمامه صامتة، فليس عندي جواب، فصفعني على وجهي صفعة غير مؤلمة، ولكنها تركتني في ذهول، ليس من الصفعة، ولكني ذهلت من نفسي، كيف أغضبته؟ وكيف رحل هو منزعج مني؟ إلهي سامحني فقد أغضبت حبيبي...

دخلت إلى البيت أديت صلاتي، رتّبت كلماتي، كلمات الاعتذار إليه، ووعد مني بألا أهمل صلاتي بعد الآن، وانتظرته حتى يعود، فأصالحه، وأعتذر إليه، ولكنه منذ ذلك اليوم لم يعد، ولم أره ثانية، فكانت هذه الصفعة (صفعة المحبة) هي الوصية، وصية لي ولكل من عرف الشيخ، أوصانا جميعاً قبل أن يرحل بالصلاة التي هي عنوان الدين، وعنوان الإسلام، فقد عاش للإسلام، واستشهد من أجل الإسلام، وكانت آخر وصاياه لي بالإسلام.





ثقة بالنفس

كنا نسكن في الشرقية، وكنت حينها في السادسة من العمر، ووالدي يجلس في غرفة الجلوس وحوله جمع من الناس (دائماً كنت أرى معه الناس وهو معهم) سألته أمّي: «هل سمعت الأنشودة التي حفظتها حوراء؟» أجابها: «لا لم أسمعها» ثم وجه إلي كلامه: «هيا يا ابنتي أسمعيني ما حفظتِ». وقفت في وسط الغرفة خجلة، ابتسم في وجهي بسمة تشجيع فأعطتني هذه البسمة قوة واطمئناناً وثقة وبدأت:

«إن سألتم عن إلهي   فهو رحمان رحيم
أو سألتم عن نبيي   فهو إنسان عظيم
أو سألتم عن كتابي   فهو قرآن كريم
أو سألتم عن عدوي   فهو شيطان رجيم»

صفّق والدي براحتيه بقوة، وهتف قائلاً: «أحسنتِ.. أحسنتِ يا ابنتي».

فرحت كثيراً بهذا الإطراء وجلست بقربه مزهوة بنفسي، فتحمست أختي الأصغر ذات الأعوام الخمسة وقالت له: «أنا أيضاً حفظت نشيداً». فقال: «هيا أسمعينا يا زهراء».

وقفت أختي في الوسط وبدأت بالنشيد متلعثمة معنعنة فقالت لها إحدى الحاضرات هازئة بها: «اجلسي فأنت لا تعرفين شيئاً». ظهر الحزن في عيني زهراء مما أثّر في قلبه الرقيق فقال معاتباً: «لا تقولي لها هذا الكلام ولا تهزئي بها فهي تنشد بشكل جيد» وتابع حديثه مخاطباً أختي: «أنشدي يا ابنتي كما يحلو لك فصوتك جميل جداً» أعادت كلماته الفرح إليها وبدأت تنشد رغم أن ذهنها لم يجمع كل الكلمات ورغم أن لسانها ما زال يتعثر. أنشدت بثقة كبيرة وكما يحلو لها نشيداً من ابتكار عقلها الصغير. وصفق لها فرحاً لأنه استطاع أن يعيد إليها ثقتها بنفسها.

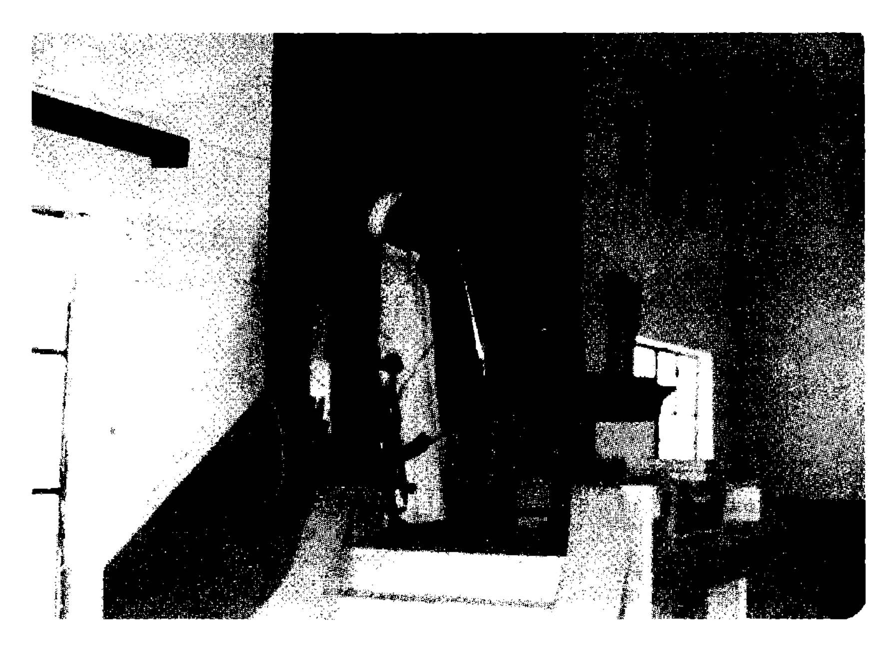


قبلة على الجبين

في سنة ١٩٨٢ عندما اجتاحت إسرائيل وطننا، كنت في التاسعة من العمر، رأيت الدبابات المعتدية، الجنود المدججين بالسلاح، كل تلك الآليات والمدافع، خوف الكبار، والحيرة والذهول[1]، هذه الأجواء جعلت الخوف يتغلغل إلى نفوسنا نحن الصغار، استمرت حالة الرعب هذه حوالي شهرين، كان والدي خلالها في إيران. وما إن عاد حتى بدأت الاجتماعات والجلسات مع الشباب، العجائز، النساء وحتى الصغار. أراد أن يجتث الخوف من النفوس والقلوب. كان يحدث الناس عن القوة الكامنة في أعماقنا، قوة محمد وعلي والحسن والحسين (صلوات الله عليهم)، وعن ضعف عدونا، ويسخر منهم ومن قوّتهم المزعومة،

---

(١) بلدتنا جبشيت كانت تحت الاحتلال منذ عام ١٩٨٢ وحتى ١٩٨٥.



ويحثّ الجميع على مقاطعة الأعداء، مقاومتهم، وحتى إظهار الغضب بوجههم. تغيّرت المواقف والمشاعر، بدأ الذعر يتلاشى من النفوس شيئاً فشيئاً.

في يوم من الأيام وصل أبي إلى منزل جدتي، وكنا وقتها هناك جالسين خارج الدار نسترجع ما جرى معنا بفرح كبير. جلس على حجر بقربنا، صار يسألنا فرداً فرداً، ليعرف سر هذه الفرحة المرتسمة على وجوهنا، فأخبرناه أن دورية إسرائيلية مرّت بجانبنا ورمت إلينا السكاكر والحلوى فالتقطناها عن الأرض ورشقنا جنودهم بها.

تهلل وجهه بالبشر، وظهرت الفرحة عليه ضحكة تعانق رنّتها أصداء الزمان، وقال: «أحسنتم أيها الأبطال الصغار»، وفتح حضنه قائلاً: «تعالوا إليّ، فكل من رشق الدورية له قبلة على جبينه». تحلقنا حوله كلنا نتسابق لنيل القبلة التي هي إكليل المجد على رؤوسنا.

سارعت بالقول: «أبي، أريد أن أخبرك أن حسن ابن خالي يخاف عندما يرى الدورية فيهرب» (حسن في الرابعة من عمره).

ناداه: «تعال يا حسن، واجلس هنا (مشيراً إلى ركبته) هل تخاف من الصهاينة؟» أومأ حسن برأسه ولم تكد تخرج الكلمة من شفتيه: «نعم».

سأله: «ولِمَ تخاف منهم، هؤلاء جبناء، ألا تراهم يختبئون داخل دباباتهم والرعب مسيطر عليهم، هل تعلم يا حسن أنك إذا عبست في وجوههم سيهربون منك خائفين؟».

بقي حسن صامتاً يستمع إليه، صمت لفترة طويلة، ولكنه لم يهرب منهم بعد ذلك، بل عبس في وجوههم وامتشق سلاحه وراح يطاردهم من موقع لموقع، من واد لوادي، ومن تلة لتلة. حتى فرّوا منه كفرار الكلاب إن شدّ عليها الأسد الهصور.



وارتفع حسن مالك حرب[1] إلى الفردوس شهيداً، لا شك أنه التقاه هناك، وتعانقا، ولا شك أنه طبع على جبينه قبلة ليست قبلة تشجع بل قبلة اعتزاز وافتخار، وتهنئة بالفوز العظيم.



(١) استشهد في ١٩٩٨ في عملية اقتحام على موقع بئر كلاب.

إيمان أصيل

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «وحق الولد على أبيه أن يحسن اسمه، ويحسن تربيه، ويعلمه القرآن».

قصدت المستشفى لأعود صديقة لي، وأهنئها بمولودتها الجديدة، في الغرفة كانت الأم والأب وطفلتهما، وبعض الأقرباء، يحاولون أن يختاروا للمولودة اسماً يليق بها، وبجمالها، الحقيقة أنني فوجئت كثيراً، فمن بين الأسماء التي تمّ اختيارها لم أجد اسماً عربياً واحداً، فهذه تقول ميراي، وأخرى تقول جاكي، . . . إلخ، تيمناً بأبطال مسلسلات ليسوا من ملّتنا ولا من بيئتنا، أما الأم والأب فقد كانا مختلفين، فالأم تريد اسم سولان، والأب يريد اسم كارين، واحتدم النقاش بينهما، كل منهما يحاول إقناع الآخر بحسن اختياره، سألتني الأم: «ما رأيك يا أختي، أيهما أجمل سولان أم كارين؟».

فأجبت بثقة: «الحقيقة كلاهما ليس جميلاً بنظري، وكلاهما ليس لنا، ألستِ مسلمة؟ ألستِ عربية؟ إذن اختاري لابنتك اسماً إسلامياً، أو على الأقل اسماً عربياً، فلغتنا العربية زاخرة بأجمل المعاني والألفاظ».

قالت الأم: «معك حق، ما رأيك يا عزيزي؟» سألت زوجها، لم يجب الزوج، بل رمقها بنظرة حادة، فمن الواضح أنه غير مقتنع بكلامي، تبسمتُ قليلاً، وعاد بي الزمان إلى الماضي، تذكرت يوم عادت أمي من المستشفى تحمل بين يديها طفلة صغيرة، أختي الصغيرة، كم فرحنا بها، استقبلناها بحفاوة كبيرة، وكلنا نريد أن نحملها وأن نلاعبها، وأمي تنهرنا رغم ما يبدو عليها من التعب وتقول: «اذهبوا يا أولاد، أختكم ما زالت صغيرة ولا يمكنكم أن تحملوها الآن، انتظروا حتى تكبر قليلاً».

«ماذا سنسميها يا أمي؟».

«لا أدري، والدك هو من يختار الأسماء».

لم تكد أمي تكمل كلامها حتى سمعنا صوته في الخارج، تسابقنا لكي نزف إليه الخبر السعيد، ثم واكبناه إلى الغرفة



حيث الصغيرة نائمة، حملها بين يديه، قرأ بصوت منخفض الأذان في أذنها اليمنى، والإقامة في الأذن اليسرى، وتلألأ وجهه بشراً، قالت له أختي: «هل ترى يا أبي ما أجمل أختي؟ انظر إلى رأسها بحجم حبة الليمون».

فقرص خدها ملاطفاً وقال: «هل تريدين أن يكون رأسها بحجم رأسك، وخداها ممتلئتين كخديك؟».

«ماذا ستسميها يا أبي؟».

وجّه كلامه إلى إحدى قريباتنا يسألها:

«ما رأيك يا حاجة؟ ماذا نسميها؟».

«استغفر الله العظيم، الفتاة رقم خمسة وهو محتار في تسميتها (همهمت بصوت منخفض).

«سمِّها وجعة تخطف نفسها».

«استغفري ربك يا حاجة، أما زلتم تفكرون بطريقة أهل الجاهلية، وما الفرق بين الذكر والأنثى، ألا تعلمين أن الفتاة رحمة من الله سبحانه، سوف أختار لها أجمل الأسماء».

فكّر ملياً ثم قال: «سأسمّها صفية».

شهقتُ وقلتُ باستنكار: «ماذا...! ما هذا الاسم يا أبي؟ إنه اسم يناسب العجائز، يوجد الكثير من الأسماء الجميلة، ما رأيك باسم رشا أو رحاب».

«لا لا، هذه الأسماء كلها جميلة، ولكن اسم صفية أجمل».

«إذا كنت مصراً فسمِّها صفاء، بدلاً من صفية، على الأقل يكون اسماً حديثاً».

«تعالي يا ابنتي (نطقها بالعربية الفصيحة، فهو غالباً ما كان يكلمنا باللغة العربية الأصيلة). ألا تحبين أختكِ؟

«طبعاً أحبها، أحبها كثيراً».

«إذاً اسمعي، لقد اخترت لك اسماً شرّفته زينب بطلة كربلاء، وزهراء اسمها كان لسيدة نساء العالمين، أما سمية فكانت أول شهيدة في الإسلام، وإصلاح كان الهدف من ثورة الحسين، وأحمد اسم من أسماء رسول الله ﷺ، إذاً لنتخيل أن أختك كبرت وعلمت أنني اخترت لكل منكم اسماً خالداً لأحد العظماء في تاريخنا الإسلامي، واخترت لها اسماً ركيكاً، ألا تحزن لذلك؟ هل ترضين أن تحزن أختك؟».

«كلا، ولكن من هي صفية؟».

«صفية بنت عبد المطلب، هي عمة الرسول ﷺ وهي امرأة عظيمة قدّمت خدمات جليلة للإسلام، ماذا هل أعجبك الاسم الآن؟».

حركت رأسي موافقة، طبعاً سيعجبني، لقد كان بارعاً في فن الإقناع يا إلهي لو كان كل الآباء يفكرون بهذه الطريقة، ويحملون في أعماقهم هذه الأصالة لما وصلنا إلى هذا المستوى من التبعية، إلى متى نبقى مبهورين بكل ما هو غريب عنا، لقد تبنى الكثير من شبابنا وفتياتنا كل ما هو

مستورد من الغرب، وأصبحنا بأمسّ الحاجة إلى الشيخ راغب وأمثاله ليعيدوا إلينا ثقتنا بأنفسنا وعلاقتنا بتاريخنا، ويعيدوا إلينا أصالتنا.



والد ليتيمات زينب عليها السلام[1]

انتقلنا إلى منزلنا الجديد، لأول مرة يكون لنا منزل يخصّنا، كنا دائماً ننتقل من منزل إلى آخر، لا يستقر لنا قرار، وأخيراً منّ الله علينا بمنزل كبير، (لم يكن قد اكتمل بناؤه، وليس فيه أي مظهر من مظاهر الرفاهية) ولكنه جميل، فهو لنا، وفيه الكثير من الحب، والحنان.

جاء والدي إلى المنزل، تأمله بنظرة تفحصية، كان ينظر إليه وكأنه يقيس شيئاً ما، أجل إنه كافٍ، علمت والدتي أن أمراً ما يشغله، فهي تعرف كيف تقرأ أفكاره، وتترجم نظرات عينيه، كيف لا وهما روح واحدة في جسدين.

«ماذا يجري يا شيخ، أراك منشغل الذهن؟» سألته والدتي.

(١) نسبة لتسمية مبرّة السيدة زينب عليها السلام.



علت وجهه الجميل بسمة الرضا، فهو يعرف أنها لن تمانع أي عمل خير يقوم به، حتى ولو كان على حساب راحتها.

«عندي عدد من اليتيمات، حوالي الخمسين لم أجد لهن مكاناً للسكن (صمت قليلاً) أرى أن البيت هنا كبير، يمكننا أن نفرغ لهن نصفه[١] (هو فارغ أصلاً من الأثاث).

(١) كان البدء برعاية الأيتام قبل إنهاء بناء المبرة، فجعل الشيخ الذكور في قاعة تحت الحسينية وأسكن الإناث في قسم اقتسمه لهنّ من منزله.

«لمَ لا، افعل ما تراه مناسباً» هكذا أجابته أمي.

«كنت أعلم أنكِ لن تمانعي، فقد اعتدت منك الصبر والإيثار في سبيل الله».

لم تمض أيام حتى أحضر بعض الشباب أسرّة بطابقين، وضعوها في غرفتين، وجهزوا الثالثة لتكون غرفة الجلوس لليتيمات، غرفتان لنا والمطبخ، مناصفة بيننا.

حضرت الفتيات، كانت فرحته كبيرة، فقد رزقه الله خمسين فتاة، بالإضافة إلى أولاده.

نحن أيضاً فرحنا بهن، رغم أنهن سوف تشاركننا أمنا وأبانا، ولكن لا بأس في ذلك، فكمية الحب والحنان في قلبيهما، تظلل الأرض كلها وتفيض، كان يجالسهن، يمازحهن، يتحدث إليهن، يخفف عنهن آلام اليتم وقسوة الظروف. وروحه المرحة رغم ما يملأ قلبه من هموم الأمة كانت لا تبارحه، فكانت كل فتاة تفتح قلبها له، وتفرغ أحزانها عنده، وتجلسه في القلب ملكاً متوجاً لا يزاحمه أحد، وما زلت أراه جالساً بيننا وعلى ركبتيه تجلس تلك اليتيمة ابنة الثالثة، يستمع إليها وهي تغني، بعيدك يا ماما بعيد

الأعياد، بكل الدنيا بتعيّد الأولاد، ويحضنها بكلتا يديه، وضحكاته تعلو، تملأ الكون فرحاً، واليتيمات تضحكن معه، إنه ساحر عظيم، استطاع أن يعيد إلى قلوبهن الفرح، وأن يثبّت في قلوبنا مشاعر الرأفة والحب، والإحساس مع الآخرين.

ولم تمض سنتان، حتى عاد الوحش المرعب، يملأ نفوسنا ونفوس اليتيمات خوفاً وحزناً، عاد اليتم يخيم بظلاله على الجميع، خمس وخمسون طفلة، افتقدت والداً قلّ نظيره.

تُرى هل تعلو البسمة هذه الوجوه من جديد؟

أم هل نجد من نبث إليه شكوانا، ونفرغ عنده أحزان قلوبنا؟ أم هل يتربع على عرش القلب ملك آخر، يكمل طريقه، ويرعى وصيته.



المؤذن الصغير

«راغب ابن الأعوام الثلاثة، هو أول شمعة أضاءت منزلي الصغير، قطعة من روحي تكبر أمامي يوماً بعد يوم، كنت أراه أجمل طفل في الوجود، له وجه أسمر مستدير، خدّاه ممتلئان، عيناه واسعتان كحيلتان، يلمع فيهما بريق الذكاء والنباهة، جسمه طويل وممتلئ، يوحي بعمر أكبر من عمره الحقيقي».

تنهّدت جدتي أم راغب وهي تسرد ما تتذكر: «كان راغب يملأ البيت حركة حيوية ونشاطاً فهو طيلة النهار يدور ويدور يركض خلف الدجاجات في الحقل تارة ويطوف حول الصاجة المشتعلة أخرى، كان لا يهدأ أبداً، وكنت أنظر إليه وهو يركض ذهاباً وإياباً، فتمتلئ روحي نشوة وسروراً، وكأن نبضات قلبي أصبحت رهناً بتلك الحركات».

كانت تقطع حديثها لحظة تأمل ثم تكمل: «ذات يوم

وبينما أنا منهمكة في أعمالي وإذا بي أفتقد حركته من حولي كاد يطير لبّي خوفاً عليه خلت للحظة أن مكروهاً قد أصابه هرولت إلى الخارج مسرعة لأتفقد البئر خوفاً أن يكون مفتوحاً، ولم أكد أتجاوز عتبة الباب حتى تسمّرت في مكاني مندهشة بما رأيت، كان راغب يقف على السطيحة(١) سارحاً إلى البعيد، منشدّاً كأنه يسمع شيئاً عجيباً، سحر إلهي جذبه إلى عالم آخر، مؤذن القرية يصدح بالأذان، وراغب يستمع إليه بطريقة غريبة (ليست شأن الأطفال في سنّه) وعندما كان ينهي المؤذن جملة من الأذان كان راغب يرفع كلتا يديه إلى إذنيه ويصرخ بأعلى صوته مردداً ما سمع ـ يا إلهي!!! ـ وبصوت شجي أيضاً، أردت في تلك اللحظة أن أركض إليه وأضمه إلى صدري، أدخله أعماق قلبي، وأشبعه تقبيلاً لشدة فرحي به وهو واقف كأنه رجل صغير يصدح بالأذان ولكنني بقيت مسمرة في مكاني أراقبه من بعيد. عندما فرغ من الأذان كلّه عاد إلى لهوه ولعبه من جديد، كانت المرة الأولى التي أراه فيها هادئاً ومشدوداً ولكنّها لم تكن الأخيرة لأنني صرت

---

(١) هي فسحة أمام المنزل.




أراقبه وقت الأذان وأراه على تلك الحالة من السكون والانجذاب لصوت المؤذن وفي كل مرة كان يعيد الأذان كلّه، انتابني شعور أن هذا الطفل غريب، متميز، لا أحد من أبناء جيله يفعل هذا الفعل ولكنني بعد فترة قصيرة أدركت أن إحساسي لم يخنّي كان إحساس أم رأت أمامها حقيقة متجلية، نوراً لمع أمامها ورأته بأم العين خطف بصرها وقلبها وأيقنت فعلاً أنها أنجبت طفلاً ليس كأي طفل، لأنه كان طفلاً متميزاً وشاباً متميزاً رجلاً مجاهداً وعالماً فريداً بين الرجال والمجاهدين والعلماء».





أجمل المواعيد

الجنوب هذه الأيام مزدانٌ بألوان الحياة، الربيع، الزهور المتنوعة، والأشجار المثمرة وأما شتلات التبغ فتتمايل زهواً كأنها عرائس بأثواب السندس، تمد أعناقها بكبرياء، كيف لا والمزارعون منهمكون فيها طيلة النهار وقسطاً كبيراً من الليل، يبدأون بقطافها بعد منتصف الليل حتى الصباح ثم ينتقلون إلى التصنيف والتوضيب. والحاج أبو راغب[1] من أولئك المزارعين يأخذ عائلته معه كل يوم ومن بينهم راغب مع عدد من فتيات القرية يساعدونه على القطاف.

كان راغب آنذاك في الحادية عشرة من عمره، ولكنه رغم ذلك كان يحرص على أداء صلاته في وقتها، لا يتركها أو يتهاون بها مهما كانت الظروف، فيحمل معه إبريق الماء

(١) والد الشيخ راغب.

ليتوضأ عند بزوغ الفجر، يحمله طيلة الطريق حريصاً عليه حرصه على عينيه أو أكثر رغم أن الطريق طويل وشاق وصعب المسالك، وفي يوم من الأيام قالت إحدى العاملات من الفتيات[1]: «أنا لا أعلم لماذا يحمل راغب الماء كل يوم ليتوضأ ويصلي بينما نحن نؤجل صلاتنا لنقضيها عند الظهر[2]؟!! هل هو أفضل منا أم أنه المؤمن الوحيد في القرية؟!! لن نقبل بهذا الوضع فإما أن نصلي جميعاً أو أن نؤجل صلاتنا جميعاً فما رأيكن يا بنات؟».

«لا تتعبي نفسك بكثرة الكلام لأن راغب لن يستجيب لكل هذه الأقاويل مهما حاولنا إقناعه» أجابت أخرى.

«إذن إصغي لما سأقول» أخفضت صوتها وجمعت البنات حولها كي لا يسمعها أحد، «عندما نصل إلى الحقل ويضع راغب الماء وينشغل بعمله سأريق الماء على الأرض لأرى كيف سيتوضأ اليوم». ضحكت الفتيات لهذه الفكرة، فهذا المقلب لن ينساه راغب طيلة عمره.

---

(١) كان الفلاحون يستأجرون عدداً من الفتيات للعمل معهم في قطاع التبغ.

(٢) كانوا لا يستطيعون أن يتيمموا بدلاً عن وضوء لأن الدخان الأخضر يجعل على الأيدي مادة تلتصق بها فتصبح حاجباً يمنع من التيمم.

وفعلاً نُفّذت الخطة ومع بزوغ خيوط الفجر الأولى تحرك راغب ساعياً نحو إبريقه الحبيب الذي يفتح له باب العروج إلى معشوقه الأوحد، ولكنه فوجئ بالإبريق فارغاً، وقف غاضباً، تتعاقب الألوان إلى صفحة وجهه، وضحكات البنات من حوله تزيده حنقاً، واختنق صوته في حنجرته وهو يحاول الصراخ: «ماذا أفعل الآن وكيف أتوضأ؟». أجابته إحداهن بتهكم: «عليك بالتيمم فالتراب كثير». وعلت الضحكات من جديد.

«ما حزرتِ والله، سأترككنّ تعملن بمفردكنّ وأذهب للبيت وأصلي وأنام لتتعلمن كيف ترقن الماء مرة أخرى».

صرخت عمّته: «يا راغب كيف تذهب وحدك في هذا الليل، وحدّ الله يا ابن أخي، اقضها اليوم وغداً تحضر الماء، وأعدك أنني سأكسر يد أي بنت تحاول إراقة الماء».

لم يسمع راغب الجملة بتمامها لأنه كان راكضاً باتجاه البيت يحاول الوصول قبل شروق الشمس غير آبه بطول الطريق ولا بالظلام ولا بما يمكن أن يصادفه في الطريق من متاعب، فكرة واحدة كانت تسيطر عليه هي كيف يمكن أن

يصل قبل انتهاء موعد اللقاء، لقاء العبد مع المعبود، لقاء الحبيب والمحبوب، لقاء العاشق والمعشوق.

ما تأخر راغب يوماً عن موعده منذ نعومة أظافره ولا آثر عليه موعداً آخر حتى هاجر إلى الله مضرجاً بدمه.. مكللاً بالمجد.. الحب.. والشهادة.



إيثـــار

منـذ أن استـشـهـد والـدي، وأنـا اسـمـع قـصـصـه، وأخـبـاره ومآثره، فالجميع يحدثني عنه، كل شخص ألتقيه يحدثني عن أثر تركه الشيخ راغب في نفسه، فهو ما مرّ في قرية أو بيت أو حـارة، إلا وتـرك فـيـهـا أثـراً، ولـكـن هـذه الـقـصـة لـيـسـت كغيرها، سمعتها كثيراً، سمعتها من أمي، أقاربي، الأصدقاء، وحتى من الغرباء، فقد كان فيها موقف أثار إعجاب الجميع بل وتعجب الجميع والقصة:

سنة ١٩٧٦ انتقل والديَّ من بيروت إلى جبشيت، سكنا مع جدة والدي في بيتها المؤلف من غرفتين، ليس فيهما شيء من الأثاث، سوى بعض الفرش والوسائد والأغطية، وبعض الضروريات، لم يكن عندها خزانة، كانت أمي تضع الثياب في محفظة للسفر، وزجاج المطبخ في صناديق من الكرتون، كان هذا الوضع مؤقتاً، ريثما ينتهي النجار من صنع

خزانتين، واحدة للثياب وأخرى للزجاج، وكانت الحياة تسير بشكل طبيعي مع الصبر، والحب الكبير، والمودة والتفاهم.

وبسبب الحاجة للخزانتين طلب والدي من النجار إحضارهما قبل الفراغ من صنعهما تماماً إلا أنهما صارتا قابلتان للاستخدام.

بعد فترة وجيزة علم والدي أن بلدة الشرقية دون إمام فتوجه إليها وسكن فيها.

قالت أمي: «جاء إليه ذات يوم رجل متوسط العمر إلى الشرقية، أدخله إلى غرفة الجلوس، وأغلق الباب، لم يطل بهما المقام، حتى خرج الرجل وودّعه الشيخ راغب إلى الباب، والرجل يدعو للشيخ بطول العمر والتوفيق.. سألته عما يريد الرجل؟».

أجاب: «مسكين... لقد ترك منزله في النبعة وترك كل ما يملك، وهو يريد المساعدة».

«وماذا قلت له؟».

«قلت له إنني لا أملك مالاً لمساعدته، أرسلته إلى منزل جدتي في جبشيت لكي يأخذ الخزانتين».

فتحت عيني تعجباً، وسألت: «وأين سأضع الأواني والثياب حين عودتنا لجبشيت؟ أفي الصناديق؟ أنت تعرف أننا لن نستطيع أن نشتري خزانة فلم يعد معنا مال، ماذا سنفعل حينها؟».

فأجابني بيقين «لا تهتمي للأمر، بيفرجها الله».

أضافت: «ما كنت أشك يوماً بأن الرزق من عند الله، ولا شككت يوماً بأن الفرج أيضاً من الله، ولكنني ما كنت يوماً أملك كل هذا اليقين الذي ملأ قلبه، ولا رأيت في حياتي كلها إنساناً محباً لله، محباً للناس، محباً للخير، يؤثر الناس حتى على نفسه وعائلته، بهذه الطريقة وهذا اليقين».

زادتني هذه الحكاية إعجاباً به، وحباً له، وكانت هذه الحادثة مصدر إعجاب وتعجب في الوقت نفسه، كل من سمعها تأثر بها وبهذا الرجل، الذي يملك قلباً من ياقوت، وهذه الروح الملائكية، أجل هذا هو الشيخ راغب حرب.

ولا تعجبوا أن يكون كذلك فإمامه علي بن أبي طالب عليه السلام، خاصف النعل.



التوكل على اللّه

هذه الحكاية حدثت سنة ١٩٧٤، أنا لا أذكرها بالطبع، فقد كنت في سنتي الأولى، ولكن أخبرتني بها عمتي فقالت: «كان أبواك يعيشان في بيروت، في منزل صغير، وكان جدك يرسل إليهما المال حتى يساعدهما على العيش، فوالدك كان يدرس ولا يملك من حطام الدنيا شيئاً، كانا سعيدين رغم ضنك العيش، فهو يدرس ويعمل لكي يحقق هدفه الكبير في نشر وتعليم الإسلام، والى جانبه زوجة صابرة، قنوعة، متفهمة محبة ولا تهمها كل مباهج هذه الدنيا طالما هي إلى جانبه. وقد رزقهما الله طفلتين اكتملت بهما فرحة القلبين العاشقين.

تركت القرية ونزلت إلى بيروت لأقضي عندهما بضعة أيام، فوجئت حين علمت بأنهما لا يملكان قرشاً واحداً، حتى لشراء ربطة خبز، تأثرت كثيراً لهذا الوضع، وانشغل



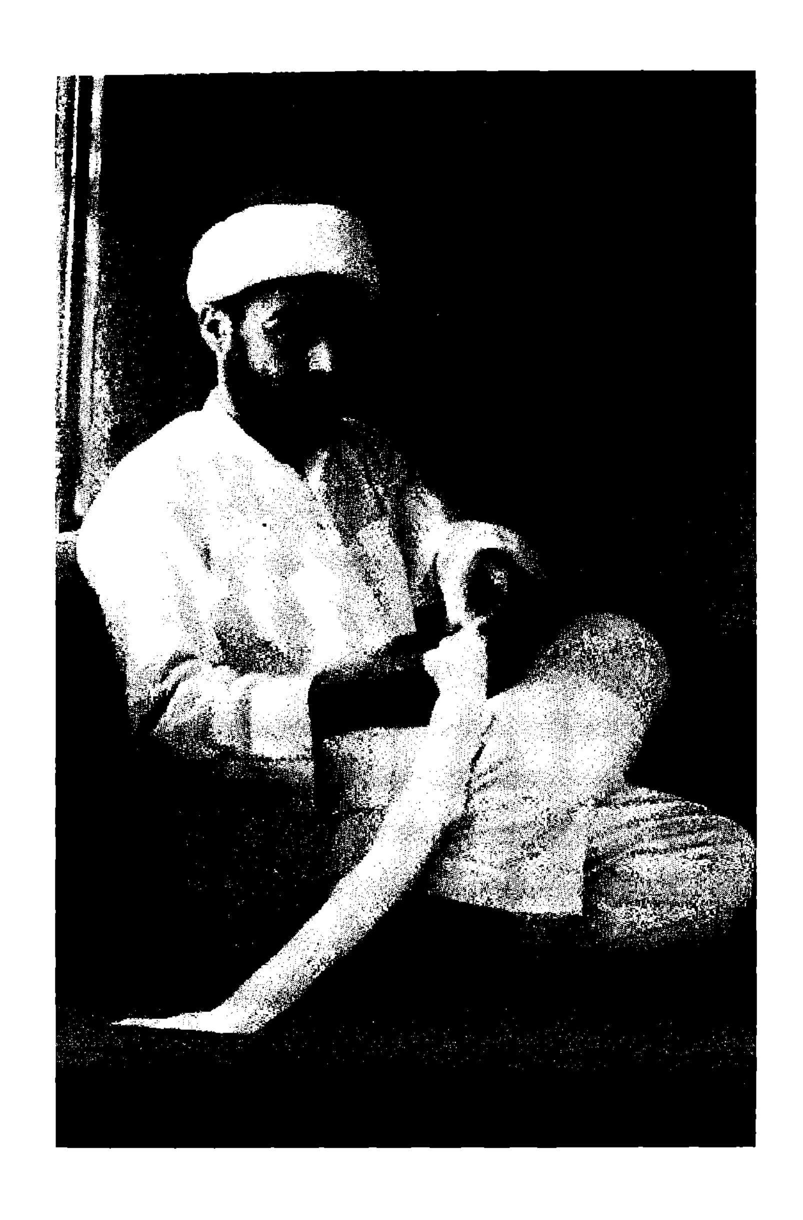
فكري كيف يمكن أن نحضر المال من القرية، وكيف سنتدبر أمورنا.

حضّرت وأمك القليل من الطعام من حواضر البيت، وانتظرنا والدك حتى يأتي فنطلب منه شراء الخبز إن كان يحمل بعض المال، وبعد قليل من الصبر حضر ومعه ضيوف، تبين أنهما عروسان يريدان أن يعقد قرانهما، وأن يبارك لهما زفافهما، وبعد عقد القران أحضرت القهوة إلى الغرفة وجلست أحادث العروس بعد أن تعارفنا. بعد قليل تناول العريس من محفظته عشر ليرات ووضعها على صينية القهوة، فقلت في نفسي: «الحمد لله لقد فُرجت» ولكن لم

يدم تفاؤلي كثيراً فقد أعادها والدك إلى العريس ولم يقبلها رغم الإصرار الشديد من العريس، وقال له: «لم نفعل شيئاً هذا واجبنا ونحن في الخدمة دائماً. . زواج مبارك إن شاء الله».

لم أصدق ما سمعت، فهذه الليرات العشر يمكنها أن تنقذ الموقف لمدة أسبوعين وأكثر ريثما نعود إلى القرية، وانتظرت بفارغ الصبر خروج الضيوف، لكي أفهم منه ما يجري، وشعرت أن تلك اللحظات دامت طويلاً، وأطالت حيرتي، وبعد أن غادر الضيوف أمطرته بوابل من الأسئلة: «كيف تفعل هذا يا شيخ راغب، ألا تدري بأن زوجتك لا تملك حتى قرشاً واحداً؟ وماذا يجري لو أنك قبلت هدية العريس؟ وماذا؟ ولم؟ وكيف؟».

كل هذه الأسئلة وجهتها إليه دفعة واحدة. . وهو يستمع وينظر إلي بهدوء، وعلى شفتيه يرسم ابتسامته الخلابة العذبة، وبعد أن أنهيت كلامي لم يقل سوى كلمتين «الله بيبعت»، ثم استطرد قائلاً: «لا أريد أن آخذ المال من عروسين مستضعفين فلا بد أنهما بحاجة إلى هذا المال». لا تتصوري كم أذهلني هذا الهدوء والتوكل، والتسليم، فقد كان أبوك شديد الثقة بالله».



ذكريات من الشرقية[1]

ها نحن جالسون على شرفة المنزل، أنا، أمي، عمتي[2]، خالي أبي ماهر، وابنتي صفاء، ويزين البدر ليلتنا. وتداعبنا نسمات الهواء الجنوبية الباردة التي تنعش الروح والجسد، ومن حولنا حفيف الأشجار معزوفة تحوي أعذب الألحان وأرقها. ويسلينا تجاذب أطراف الحديث، وتحلو سهرتنا عندما نطرق باب الذاكرة ونفتح سجلات قلوبنا المليئة بالسيرة العطرة للوالد الحبيب.

وها هي أمي تفتح قلبها وتقول: «حين استقر بنا المقام في بلدة الشرقية تعرف الشيخ راغب على سكانها بوقت قصير، وتوطدت العلاقة معهم، وكثرت الأحاديث عن هذا

---

(١) أقمنا في بلدة الشرقية منذ عام ١٩٧٦ حتى عام ١٩٨٠، حينها كان الشيخ راغب (والدي) إمام بلدة الشرقية.

(٢) عمة والدي.



الشيخ الذي يملك صفات فوجئ بها الجميع هناك. لا سيما تواضعه الشديد، طيبته، بشاشته، وحبه للناس، فلم يعتادوا على هذا القرب الشديد بين العالم والناس من قبل. فقد كان ينتقل داخل القرية سيراً على الأقدام، يكلم ويحيي كل من يلاقيه على الطريق، صغيراً كان أم كبيراً، رجلاً أو امرأة».

تنشط ذاكرة عمتي ويعود بها الزمن إلى أيام الشرقية: «أي والله لقد رافقته يوماً في زيارة لإحدى العائلات هناك وسرت معه إلى البيت فكان طول الطريق يرفع يده اليمنى تارة ليسلم على جماعة، ويرفع اليسرى طوراً ليسلم على أخرى. حتى قلت له والله يا ابن أخي إنك تحرّك يديك أكثر مما يفعل

شرطي المرور، فتفجرت جوارحه بضحكة لا تزال رنتها في قلبي، واحسرتاه على تلك الضحكة».

ويُسمعنا خالي أبو ماهر ما يتذكر: «عندما علم الشيخ راغب أن مدرسة الشرقية الرسمية تحتاج لطابق آخر لتستوعب كل التلاميذ، وبما أن الدولة غائبة والملف الذي يدخل في أدراجها لا يخرج أبداً، قرر الشيخ أن يستعين بالأهالي ليبني هذا الطابق.

خطا الشيخ الخطوة الأولى للمشروع واشترى الرمل فوضعه صاحب الجرار أمام باب المدرسة. وهناك واجهت الشيخ راغب عقبة أخرى، فلا يمكن إبقاء الرمل على الطريق، والنقود التي يملكها لا تكفي لاستئجار عمال لنقلها.

ولكن لم تكن الأمور عند الشيخ معقدة فبالتوكل على الله كل الأمور تسير نحو اليسر، فمع بزوغ شمس اليوم التالي لبس الشيخ سروالاً وقميصاً وخرج من بيته الذي تفصله أمتار قليلة عن المدرسة، ملأ أول كيس من الرمل، وضعه على ظهره وصعد به إلى سطح المدرسة. أفرغه على السطح وقفل نازلاً ليكمل، وما إن وصل وهمّ بملء الكيس ثانية حتى مرّ

به رجل من البلدة يدعى أبو نجيب وسأله متعجباً وكأنه لا يصدق ما يرى: «ماذا تفعل يا مولانا؟» أجابه: «أنقل الرمل إلى سطح المدرسة لبناء طابق آخر؟» فقال أبو نجيب: «وتنقلها بنفسك؟!!». ثم هرول مسرعاً إلى حسينية البلدة وأطلق العنان لمكبر الصوت قائلاً: «يا أهالي بلدتنا الكرام... يا أهالي بلدتنا الكرام... يا للعجب... يا للعجب... قوموا وانظروا الذي يجري... الشيخ راغب... فضيلة الشيخ... سماحة الشيخ ينقل الرمل إلى سطح المدرسة بيديه وعلى كتفيه... أين الشباب... أين الشهامة؟؟؟» وكرّر الحاج أبو نجيب نداءه مرات عديدة ولم يمض الوقت حتى كان كل شبان الشرقية ورجالها أمام المدرسة يساعدون الشيخ بنقل الرمل».

ويطرب قلبي للقصة التي سمعت: «نعم يا خالي، فلطالما سمعت من أهل الشرقية ثناءً بحق والدي حيث يرون أنهم رغم ما عرفوا من علماء متواضعين وموقرين إلا أننا لم نعرف كالشيخ راغب».

هذه القصص تحرك لهف ابنتي للمعرفة فتلح على جدتها أن تقصّ عليها قصة ثانية. ويرسم هذا السؤال على شفتي أم

أحمد ابتسامة فيها مزيج من الحزن والسرور وتقول: «ذكرياتنا في الشرقية لا تنتهي، فيوماً كنت قد ابتعت حاجيات غذائية للمنزل ووضعتها في المطبخ، فدخل علي الشيخ وبدأ يحمل كل غرض منها ويفتش عن بلدة منشأها، وحين انتهى وجه كلامه إليّ قائلاً: «ما هذا يا أم أحمد، أرى أن منشأ علبة السمن هذه بلد أجنبي»، فأجبته: «لم ألتفت للأمر» فقال: «أفضل أن لا تبتاعي إلا ما هو من صنع بلدنا، لنشجع صناعاتنا الوطنية، وإن لم تجدي مبتغاك من الصناعة الوطنية فاختاريها عربية، فنحن أمة لا يجب أن تأكل إلا مما صنعت يداها، أتمنى أن تبدلي علبة السمن بأخرى من صنع بلادي» وفعلاً حملت علبة السمن وسرت لتبديلها في الدكان، وبعدها صرت أشجع النسوة على الأمر، ولكنني الآن كلما تذكرته أحسست بذلك العبقري الذي كان سابقاً لعصره، محدقاً في مستقبل الأمة القادم من بعيد».





القلب الدافئ[1]

الجو بارد في هذا الشتاء، لا سيما هذا اليوم، فطقسه الجليديّ يتغلغل صقيعه إلى العظام، والظلام حالك، والرعب يملأ نفوس الجنوبيين، فالقبضة حديدية، وجنود الاحتلال لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلاً، ولكن هذا لم يمنعني أن أخرج للسهرة مع جيراني، سهرنا بجانب المدفأة، نحتسي الشاي، ونتجاذب أطراف الحديث، وجذبتنا الأحاديث فلم ندر إلا والليل قد انتصف.

قفلت عائداً إلى بيتي معانقاً عباءتي الصوفية السميكة علها تحميني من هذا الصقيع، وفجأة تناهى إلى مسمعي صوت خطى، ولمحت شبحاً يتحرك في الظلام، فصرت أقترب منه ببطء وحذر، حتى عرفته، فبياض عمامته يشعّ حين يطل

(١) هذه القصة عن لسان أحد الرجال في القرية رواها لي.

القمر من بين الغيوم، إنه الشيخ راغب، آتياً من مبرة السيدة زينب عليها السلام سيراً على الأقدام، مترنماً بشيء من الشعر، تقدمت إليه مذهولاً: «ما هذا يا شيخ راغب، كيف تسير وحدك في الليل، والعدو يبحث عنك بالسراج والفتيلة؟».

فأجابني: «لا بأس عليّ يا أخي، فمن كان في حصن الله لا يخشى شيئاً، ثم إن الشهادة هي كل المنى».

فأكملت سؤالي بخوف: «ولكن يا شيخ راغب، يجب أن تكون أكثر حذراً وحفاظاً على نفسك، فأنت لست مُلكاً

لنفسك، أنت ملكٌ لنا جميعاً، ملك لكل الثائرين والمستضعفين؟».

عندها ظهرت على وجنتيه دمعتان، كأنهما اللؤلؤ تلمعان، تضيئان ظلام ذلك الليل الحزين، وتهدّج صوته وهو يقول: «كيف أستطيع أن أحافظ على نفسي، كيف يخطو النوم إلى جفوني إذا لم يطمئن قلبي عليهم، كيف أقدر أن أنام إذا لم أتأكد أنهم جميعاً ينعمون بالدفء وبالشبع وبالسعادة، أليس علينا أن نمسح على رؤوسهم لنشعرهم بشيء من الحنان؟».

وبكى، نعم بكى صاحب القلب الحنون، وتأوّه وهو يذكرهم، وكأن قلبه أخبره بأن اليُتم سيحيطهم من كل جانب، يتم الآباء والأمهات، ويتم القلب الكبير للشيخ راغب.









تواضع الأبطال

كان يقف على منبره وقفة شجرة سنديان صلبة لا تهزها العواصف، والناس من حوله أمم توافدت من مناطق مختلفة من جبشيت وحاروف، النبطية والشرقية، الدوير وأنصار، عدشيت وكفرصير، وقرى المنطقة كلّها، امتلأت بهم الحسينية وفناؤها الخارجي، وبعضهم وقف في الشارع المحاذي للحسينية[1]، كلهم جاؤوا إليه كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، جاؤوا لسماعه والصلاة خلفه لا أدري ما الذي أدخل عشقه إلى قلوبهم هل هي كلماته ومواقفه، أم أنها محبة الله المنبعثة من قلبه وضميره ووجدانه.

---

(١) كانت تقام الصلاة في الحسينية لأن المسجد كان في طور البناء.



كان يتكلم بطلاقة يشرح للناس آيات كريمات من كتاب الله العزيز، يعلمهم كيف يكون الموقف ضد الأعداء سلاحاً فتّاكاً وكيف تكون المصافحة اعترافاً. كلمات انطلقت من قلبه الطاهر ولسانه العذب، شلالاً تفيض خيراته على من حوله ليرتوي الجميع، وبينما هو في غمرة حديثه مسترسلاً والناس مشدودةٌ أفئدتها إليه، وإذ بامرأة تقف على باب الحسينية، ويرتفع صوتها بالسباب والشتيمة والدعاء عليه بالشر، لأنها تعتبر أن الشيخ هو المسؤول عن اعتقال الصهاينة أخيها. قام بعض الشباب وطردوها. أكمل خطابه كأن شيئاً لم يكن، وإذ بالمرأة تعود ثانية وأعاد الشباب طردها وحذروها من العودة.

أنهى الشيخ خطبة الجمعة، ارتفع صوت مؤذّن القرية الحاج حسن حرب[1] بالإقامة للصلاة ووقف المصلون في

---

(١) هو خال الشيخ راغب استشهد بعد الشيخ بأربعين يوماً أثناء وقوفه والناس في وجه الهجمة الإسرائيلية على القرية.



صفوف متراصة، ووقف الشيخ أمامهم في فناء الحسينية الخارجي.

وما إن كبّر للصلاة حتى عادت المرأة من جديد، اقتربت من الشيخ راغب أزاحت السجدة من أمامه ووضعت مكانها حذاء وغادرت، وكأنها بفعلتها الوضيعة تلك أطفأت نيران حقدها عليه.

هوى الشيخ إلى السجود وأعاد السجدة إلى مكانها مكملاً صلاته. وليس غريباً أن يتعرض الشيخ راغب لمثل هذا الموقف فرسول الله ﷺ تعرض لمواقف أشد قسوة، وهو ﷺ القائد والقدوة.

ومما اقتبسه من أخلاق رسول الله ﷺ أنه في تلك الليلة قصد في جمع من الرجال منزل تلك المرأة التي قامت بسببه في الحسينية.

طرق الباب، ففتحت المرأة ذاتها، ولشدة ما كانت دهشتها كبيرة عند رؤيته وقفت مشدوهة تنظر إليه، ولم تعرف

لم جاء ولا ما تقوله له. فبادرها بالقول: «جئت لأشرب الشاي عندكم».

أجابته بلسان متلعثم: «أهلاً وسهلاً تفضلوا».

دخل إلى المنزل تربّع على فرشة ممدودة على الأرض بكل تواضع، لم يكن هذا التواضع مرتجلاً أو مصطنعاً، لقد كان مجبولاً به في أصل كيانه وفطرته جلس أصحاب البيت يبدو الوجل والخجل على وجوههم ماذا يقولون إن عاتبهم على ذلك الموقف السخيف. ولكنه لم يفعل، ولم ينبس ببنت شفة حول ذلك. بل سألهم عن أحوالهم وأعمالهم وحادثهم حول أمور مختلفة ثم ودّعهم ورحل.

وهذا الأمر لم يكن الوحيد، بل إنه كان يبادر لزيارة كل من أساء إليه ويقابله بالإحسان والود.

ومن هنا علمت سر محبة الناس له وانجذاب القلوب إليه، إنه التواضع ومحبته للجميع وحتى لمن أساء إليه. فهذه المحبة هي النبع الذي ارتوت منه تلك القلوب فاشتعلت بركاناً بعد استشهاده لينفث البركان حممه ونيرانه في وجوه المحتلين، ويزلزل الأرض تحت أقدامهم، ويجود علينا بعيد جديد، عيد الانتصار والتحرير.

تؤتي أكلها... شهداء

نظرت إلى شجيرات زيتون[1] فتية، ما تجاوز عمرها السنوات العشر، ورغم ذلك فإن أغصانها تتدلى بتثاقل لكثرة ما تحمل من حبيبات الزيتون التي تبدو خضراء لامعة تسر الناظرين.

كنت أنظر إلى هذه الشجيرات فتطرق ذهني صورة والدي الذي كان مجبولاً بحب الأرض، قد اختلط لحمه ودمه بترابها المعطاء حتى أنه كان يأنس بالزرع ويهيم بالجلوس على العشب الندي أو تحت الأشجار الوارفة الظلال، وكان يحثّ الناس على زراعة الأشجار المثمرة، ويخص شجرة الزيتون باهتمامه الخاص، حيث تأخذ شيئاً من وقت حديثه للناس فيذكر لهم كم تنفع الناس بزيتها وثمرها وظلها، وكم

(١) بلدتنا جبشيت تشتهر بزراعة الزيتون.



يستمتع البصر بمنظرها الجميل حيث إنها دائمة الخضرة طوال العام. والأبرز أن الله تعالى ذكرها في كتابه الكريم.

قطع صوت عمي[1] حبال الأفكار الشاردة مني بصوته قائلاً: «أين ذهبت بتفكيرك؟». فأجبته: «تذكرت والدي».

فقال: «رحمة الله على والدك، اسمعي هذه القصة»، وبدأ يسرد: «قديماً كان لي مأخذ على والدك أو فلنقل ملاحظة، فقبل أن أسافر إلى السعودية كنت أراه يتردد باستمرار إلى منزل أحد أبناء القرية، وهذا الرجل كان مجاهراً بانتمائه لتيار مخالف لتعاليم ديننا، ولم يكن هذا الرجل فقط منتمياً لهذا

(١) والد زوجي، وهو في نفس الوقت خال والدي.



التيار بل كان يدافع عن أفكار هذا التيار، وقد كان أصحابه في القرية قلة بسبب أفكاره هذه. وكنت في كل مرة أعرف أن الشيخ راغب زار هذا الرجل أعجب وأحار وأنوي في نفسي أن أعاتبه، إلا أنني كنت أنسى الموضوع كلما التقيته أو أجد الظرف غير ملائم لموضوع كهذا. وسافرت بعدها ولم أكن قد عرضت الموضوع مع الشيخ».

وتابع عمي بعد أن قاطعته أنفاسه متنهداً: «واستشهد والدك قبل عودتي من السفر، وكنت قد نسيت الأمر أبداً. وبعد مرور وقت طويل وأثناء وجودي في مسجد جبشيت

التقيت شاباً لم أعرفه فالغربة أبعدتني عن هذا الجيل. ولم أشعر إلا وأنا أقترب من هذا الشاب وأسأله: «ابن من أنت أيها الشاب؟» وذهلت إذ أجابني أنه ابن ذلك الرجل الذي كان والدك يزوره، الرجل الذي ما ارتاد المسجد يوماً ولا صاحب مرتاديه. هذا الأمر استفزني لأسأله عن أخوته إن كانوا ملتزمين مثله أم لا فأجابني أن جميع أخوته في البيت ملتزمون والحمد لله تمام الالتزام. عندها تبسمت وترددت قليلاً في إكمال أسئلتي لهذا الشاب ولكن الفضول جعلني أطرق باب المعرفة: «عفواً بني ولكن هل بدّل والدك أفكاره التي كان يحملها» فأجاب: «لا، ما زال كما كان رغم محاولتي وأخوتي الجاهدة لإرجاعه إلى جادّة الصواب، وإن كنتَ مستغرباً تسأل مَنْ علّمنا الالتزام فسأخبرك، لقد كان الشيخ راغب يزور بيتنا باستمرار وكنا لا نزال صغاراً، وكان يمازحنا، يلاعبنا، يحدثنا ويعلمنا الصلاة ويرسخ الإيمان في صدورنا فعشقنا هذا الدين وازداد تمسكنا بالالتزام بعد استشهاد الشيخ راغب، ولقد عاهدناه على السير بخطاه ما حيينا».

أسكتت غصة الدمع عمي قليلاً، ولكن ما لبث أن عاد ليكمل القصة فقال: «علمت السر الدفين في تلك الزيارات

التي كنت أريد معاتبته عليها، وعرفت أن أسلوبه في الدعوة إلى الله كان أسلوب من يغرس في الأرض بذرة ثم يرويها بالماء الزكي الذي هو إكسير الحياة، ألا وهي الدماء الزاكية التي تسقي الأرض التي عشقها، وعشق زيتونها وتينها وليمونها وكل نبتها الطيب، كما عشق أهلها وحريتها وكرامة أبنائها فهذا الشاب التحق بقافلة الشهداء النورانية. ورأيت بأم العين تلك البذرة وقد صارت شجرة مباركة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها فهذا سر الدم الذي يسقط بيد الله تعالى».



قصة الطهر الذي انتصر[١]

كانت السيارة تتهادى بنا على طريق النجف الأشرف، وكنت أنظر إلى ما حولي باستغراب، تتقاذفني مشاعر متضاربة، فأنا سعيدة لأن الله حقّق حلمي وجمعني برجل أحلامي وابن عمي الشيخ راغب، ولكن ينتابني الحزن لفراق أهلي ووطني وأصدقائي، وكل ما ألفته منذ صغري، إنها المرة الأولى التي أبتعد فيها عنهم، خصوصاً أمي وإخوتي، الذين سوف أفتقدهم دون شك.

ولكن الأهم من ذلك أنني أنتقل إلى جو جديد، إلى مجتمع جديد، لا أعرف عنه شيئاً، ولا أدري كيف سيكون شكل الحياة هنا.

وصلنا إلى النجف، ونزلنا لمدة أسبوع ضيوفاً في منزل

---

(١) عن لسان أمي.



الشيخ جعفر شمس الدين، ومن ثم استأجرنا منزلاً، بسيطاً وجميلاً، ولكن أجمل ما فيه جيرته، فليس بعيداً عنه مقام أمير المؤمنين علي عليه السلام، والى جانبه بيت السيد محمد باقر الصدر، والسيد محمد باقر الحكيم، والسيد إبراهيم مرتضى، والشيخ طالب الخليل، وغيرهم من الجيرة والأصحاب، حيث أصبحت الحياة بصحبتهم أجمل.

هنا في النجف الشيخ راغب يتابع دروسه الدينية على يد الشهيد السيد محمد باقر الصدر، ونحن أيضاً نتلقى دروساً من الشهيدة السيدة آمنة الصدر (بنت الهدى) تلك السيدة الفاضلة، التي علمتنا كيف تكون المرأة المسلمة الرسالية،

متواضعة، بسيطة في حياتها، جميلة الخلق واللسان، محبة للجميع.

كل هذه الأجواء جعلتني أشعر بالسعادة، سعادة زيّنت أيامي، إنها أجمل أيام عمري، لا يعكر صفوتها شيء، ولا حتى شوقي لأهلي، ووطني وأصحابي، ووجود زوجي معي كان يغنيني عن العالم بأسره..

بعد أشهر بدأ القلق ينغّص عليّ سعادتي، كنت أحاول ألا أظهر قلقي أمامه، ولكن وجهي دائماً يفصح عما في أعماقي، أما سبب القلق فهو خوفي عليه، فالشيخ راغب لا يسكت على باطل يراه أبداً، لا يهتم بالشرطة العراقية ولا بالمخابرات ولا بالنظام وبما اشتهر به من الإجرام والوحشية، فذات يوم كنا نستقل سيارة أجرة، كنت أجلس أنا في وسط المقعد الخلفي، وهو إلى جانبي لناحية الرصيف، فتوقف السائق لامرأة تريد الركوب، ولأنها تريد أن تجلس إلى جانبي فإنها فتحت الباب المحاذي للطريق، فجاء الشرطي وغرّم السائق جراء مخالفة قوانين السير، فما كان من السائق إلا أن كفر، وقال على الله ما لا يقال، احمر وجه الشيخ غضباً وانهال على السائق باللعن والتقبيح.. «لعنك الله أيها الفاسق ولعن



شرطتكم وحكومتكم، إذا كان الشرطي هو من أخذ منك المال فالعنه هو إن كنت رجلاً أيها الجبان، كيف تتجرأ على الذي خلقك وأنعم عليك» وبقي يصرخ في وجهه حتى وصلنا إلى مقصدنا ونزلنا من السيارة، ولكن هذه ليست الحادثة الوحيدة التي زرعت الخوف والقلق في نفسي.

بعدها بأيام كنت أجلس في غرفتي، وكان يجلس مع ضيوفه في الغرفة المجاورة، فسمعتهم يتحدثون عما جرى عندما زار محافظ النجف طلبة العلوم الدينية لكي يستمع إلى شكواهم واقتراحاتهم، فبدأ الطلبة بالكلام.

قال الأول: «ليس لدينا طلبات، حفظكم الله فكل شيء متوفر» وقام الآخر ليقول كلاماً مماثلاً، وغيره وغيره.

فوقف الشيخ راغب وقال للمحافظ: «بل إن لنا الكثير من

الطلبات والشكاوى، لماذا تدسّون الجواسيس في صفوف الطلبة؟

لماذا يتجوّل رجال المخابرات بين بيوت الطلبة وفي الأزقة؟

لماذا اعتقلتم العالم الفلاني؟ والعالم الفلاني؟

وبقي يسأل ويسأل غير آبه بغمزات زملائه وهم يعضون له على شفاههم ليسكت. وعندما خرج الضيوف من المنزل كنت في غاية الخوف، حاولت جاهدة أن أخفي ما يعتمر في قلبي ولكنني فشلت في ذلك، فبادرني بالقول: «ما بالك اليوم حبيبتي، أراك متوترة؟».

ألا تدري ما بي حقاً؟ أنا لست متوترة، أنا مرعوبة، ألا تعلم أين نحن؟ إننا في العراق، إذا اعتقلتك الشرطة العراقية فلن يعرف أحد عنك شيئاً، إنهم مجرمون، لم يأخذوا أحداً إلى معتقلاتهم إلا وأصبح مصيره مجهولاً».

«اسمعي يا أم أحمد، لن أسكت عن الحق أبداً حتى ولو كلفني ذلك حياتي، قسماً بالله إن رأيت صبية المخابرات أمام منزلنا لأوسعتهم ضرباً وركلاً حتى لا يعيدوها مرة أخرى،

هدّئي من روعك وكوني على ثقة بأن قول الحق ما قصرّ عمر أحد، لأن الأعمار بيد الله وليست بيد هؤلاء الجبناء».

الحقيقة أن جوابه أسكتني ولكنه ما استطاع أن يجتث الخوف من قلبي، خصوصاً وقد رزقنا الله طفلة أصبح بعدها خوفي مضاعفاً، فوقفت على سطح الدار ونظرت إلى قبة مرقد أمير المؤمنين عليه السلام أمامي متلألئة، شامخة تتحدى الزمان بخلودها، توجّهت إليه بقلب خاشع، وتوسلت إلى الله بحرمة هذا المقام الشريف أن يحفظه ويحميه من كل شر.

وأخيراً، وبعد عامين من الهجرة عن الوطن، قررنا أن نعود في زيارة قصيرة، لنطمئن على الأهل والأحبة من جهة، ولكي أريح أعصابي من جهة ثانية.

وفي أحضان قريتي وأهلي نسيت كل ما ألمَّ بي، وكأنه لم يكن موجوداً، استعدت صفاء نفسي، وعادت البهجة تسكن قلبي ووجداني.

وبعد أشهر من عودتنا استلمنا رسالة من العراق تقول بأن الشرطة العراقية داهمت منزلنا واعتقلت الشيخ الذي يقطنه في غيابنا، وكان هدفهم هو الشيخ راغب، وأن كل الأسئلة التي

وُجِّهت أثناء التحقيق كانت تدور حول الشيخ راغب، سألته: «ما رأيك في ما جاء في الرسالة؟».

أجاب: «وماذا سيكون رأيي... لا شيء».

ـ «هل سنعود إلى العراق وقد أصبحت مطلوباً؟».

ـ «طبعاً سأعود».

يا إلهي كم هو ثابت، لا يمكن أن يثنيه عن عزمه حتى احتمال الموت، ماذا سأفعل؟ سأخبر عمي بالأمر، لعله يجد لي مخرجاً من هذا المأزق.

علم عمي أبو راغب بأمر الرسالة وما جاء فيها فاستدعاه وطلب منه ألا يفكر بالعودة إلى العراق مجدداً.

أحنى الشيخ رأسه احتراماً وقال لأبيه: «لكن يا أبي أريد أن أكمل دراستي، فالطريق ما زال طويلاً أمامي».

ـ «اسمع يا بني، دراستك يمكنك أن تكملها في بيروت، ولن أقبل بعودتك إلى العراق أبداً، لقد انتظرت طويلاً وأنا أدعو الله حتى رأيتك وقد أصبحت رجلاً يُعتمد عليك، هل تريد أن تُحرق قلبي وقلب والدتك عليك؟».



ـ «أبـي، الأعـمـار بـيـد الله، مـا عـهـدتـك إلا مـؤمـنـاً بهذا. . . ؟».

ـ «بني، حبيبي، إذا كنت تريدني راضياً عنك فلا تسافر مجدداً».

ـ «أمرك يا والدي، ما أغضبتك سابقاً ولن أغضبك الآن، سوف أعدل عن فكرة السفر مبدئياً».

هكذا استطاع عمي أن يزيل عني ذلك الكابوس الثقيل، وسكنّا في بيروت، اهتم هو بدراسته، وكان كل همي أنا أن أسهر على راحته، وعلى تربية الأولاد، وبعد فترة مرض

عمي مرضاً خطيراً، وانشغل به الشيخ راغب حوالي السنة، ثم توفي عمي، وأصبح الشيخ راغب مسؤولاً عن إخوته وأهله، هنا فقط عزف عن فكرة العودة إلى العراق بشكل نهائي.

مرت سنتين تقريباً ونحن في مشاغلنا وأعمالنا، حضر حينها إلى بيت عمي في القرية شاب عراقي في مقتبل العمر، أطلق على نفسه اسم (غيفارا) قال إنه هارب من النظام العراقي، استقبله الجميع بالترحاب، برحابة أبناء الجنوب، ولطفهم وكرمهم، فهم ما زالوا يعيشون بساطة القرى، يأكلون مما يزرعون، ومما يربون من الأبقار والماعز والدجاج، يصنعون خبزهم بأيديهم، قلوبهم صافية، عقولهم نظيفة، والصدق هو منطقهم، بقي (غيفارا) معهم مدة شهر كامل، كان يلازم الشيخ راغب كظله، يرافقه في سهراته وجلساته ودروسه، وكانت امرأة عمي أم راغب تهتم به وكأنه أحد أبنائها، وأكثر، تغسل له ثيابه، وتقدم له الطعام الذي تصنعه له خصِّيصاً.

وقد سألته ذات يوم: «ماذا تريد أن تأكل اليوم يا بني؟»، قال لها أحد أولادها ممازحاً: «أراهن أن أمي تناديه يا بني

لأنها لا تعرف كيف تلفظ اسمه»، ضحك الجميع، فقالت أم راغب: «اسكت يا ولد، أنا أناديه يا بني لأنه في معزّتك أنت وإخوتك».

فقال لها: «إذاً ناديه وأسمعينا؟».

أخذت عوداً مشتعلاً من تحت الصاج وقالت له مهددة: «اذهب إلى عملك وإلا أحرقتك بهذه القصبة».

فعاد الجميع إلى الضحك.

في الليل كانوا يسهرون على السطح في خيمة صُنعت من القصب، إخوتي وأبناء عمي، وبعض شباب القرية، والضيف معهم، يتسامرون ويضحكون، وكانت تزين هذه السهرات جلسات الشيخ راغب، يعلمهم فيها أحكام دينهم، يطمئن إلى أحوالهم، يمازحهم، ويستمع إلى همومهم، وآمالهم، وكانوا ينامون في الخيمة.

انقضى الشهر، ودّعنا الشاب ورحل دون أن يعرف أحد منا لم جاء، أو لم رحل. وفي اليوم التالي وجد الشيخ راغب رسالة تركها في الخيمة تحت الوسادة، يقول فيها: «أخي العزيز الشيخ راغب، لقد سمحت لنفسي بأن أصفك بأخي

لأنك كنت أخاً وأكثر، كنت أفضل من الأخ وأرأف، ووالدتك العطوف التي تملك قلباً فيّاضاً بالعاطفة، وأخوتك وأبناء قريتك الذين اعتبروني واحداً منهم، واستقبلوني بكل هذا الحب وهذا الطهر والبراءة، كل هذا جعلني أرجع عما جئت من أجله، سيدي لقد أتيت من العراق مبعوثاً من قبل النظام لكي أقتلك، ولكنني بعد أن تعرفت عليكم ورأيت كرم أخلاقكم وما تحملوه في قلوبكم من محبة ورحمة لم تطاوعني يداي على تنفيذ ما أتيت من أجله، لذا أرجو منك أن تسامحني، وأن تكون حذراً، فربما استطاع غيري أن ينجز المهمة التي لم أستطع إنجازها، والسلام» (غيفارا).

أخبر أحد الشباب الحاجة أم راغب بأمر الرسالة قائلاً: «هل رأيت يا أم راغب، ذلك الشاب الذي اعتبرته ابناً لك كان يريد اغتيال حبيب قلبك الشيخ راغب، ما رأيك بذلك؟».

أجابت الحاجة: «ماذا سأقول يا بني، الله يسامحه ويهديه، ويهدينا جميعاً».

وهكذا ومرة جديدة انتصر الحب بطهارته على الشر بكل حقده وجبروته، وكان الإيمان والصدق والصفاء في تلك

الشجرة المباركة التي كان الشيخَ راغب فرعاً من فروعها أقوى
من كل المؤامرات الشريرة.



بشرى الانتصار[1]

ما أجمل هذا الصباح، فيه دفء يوم ربيعي، أشرقت شمسه لتضفي على الدنيا سحراً، تلوّن الجنوب كل الجنوب بألوان الزهور، دفء ينبعث من أعماقي، من ذلك الوجه المتلألئ الوضّاء. وجه الخميني العظيم كان يجلس عندنا في غرفة الاستقبال، وحوله عدد من الرجال قليل، كنت أراقبه بمقلتين غمرهما النور الساطع، الذي أشرق بقدومه علينا زائراً، أراقب وجهه وعنقه وكأنهما اللجين سائلاً بين شعاع الشمس وأمواج القمر، أراقب يديه اللتين قدمتا لنا أزهار الحرية في زهرية المجد والعزّ والكرامة. يحركهما وهو يتكلم، يحدثنا عن الحرية والنصر وأسبابهما ويقول: «النصر بحاجة إلى أركان ثلاثة (يرفع إبهامه وسبابته والوسطى) إلى

(١) عن لسان أمّي.



الرجال والدماء والابتعاد عن الترف وحب الدنيا» كان هذا آخر ما قاله ثم قام مستعداً للرحيل. حمل بيده هدية ملفوفة وقدّمها إليّ. كان فيها ثوب أبيض ناصع يخطف الأبصار بريقه، أفقت من نومي منتشية، قد أسكرني حبه المولود في قلبي منذ انتصاره.

جالت الأفكار في رأسي، ليت الشيخ راغب موجوداً لكي أخبره، ولكن لا بأس فعندما يأتي من إيران سأخبره.

سألت عن تفسير هذا الحلم، سألت أكثر من شخص،

كلهم أجمعوا على أنّه قدّم إلي النصر القريب الناصع البرّاق. فطربت نفسي للتفسير أكثر مما طربت للحلم نفسه، فمعاناة الجنوب أصبحت في نهايتها وسننعم بالأمان.

ثلاثة أسابيع مضت عدت إلى انشغالاتي وأعمالي، وعاد الشيخ من سفره، وفي أول لقاء بيننا حدثته عمّا رأيت في المنام. كنت أصف له الإمام بدقة كما رأته عين محبتي وولائي. وجهه، شعره، لحيته، يديه، والنور الذي كان يسطع منه. وكلما وصفت للشيخ شيئاً مما رأيت كان يرفع صوته مصلياً على النبي وآله. ولكنني حين كلّمته عن أركان النصر التي ذكرها الإمام (قده) وعن الثوب الأبيض الذي قدّمه لي غاب في عالم بعيد. ورأيت في عينيه بريقاً لم أره من قبل، وفي ابتسامته رأيت جمال العالم الذي غادر إليه. نبهته من شروده قائلة: «ماذا يمكن أن يفسر هذا الحلم؟ هل هو النصر؟».

«ربما يكون هو وربما يكون أعظم» أجابني الشيخ.

لم أفهم معنى مقالته فما الذي يمكن أن يكون أعظم من النصر؟!! لا أدري.

ولكن بعد أقل من شهرين عرفت تأويل رؤياي وعرفت مقصد الشيخ، فسّرهما دمه الذي سال على الأرض نقياً،

وتلك البسمة التي ارتسمت على وجهه حين كان مسجّى بيننا وكأنه في نوم هنيء. وما زادت وجهه إلا تألقاً وبهاءً، فسّرهما البركان الذي ثار في تشييعه مؤذناً بالانتصار، وولادة حزب الله في اليوم السابع لشهادته، فسّرتهما ولادة راغب بعد أشهر ستة فجر يوم الجمعة، وفسّرهما الانتصار العظيم في أيار من العام ألفين.

ولكن... لم ينته التفسير بعد، فما زلنا ننتظر ما هو أعظم من انتصار الجنوب، ما زلنا ننتظر عودة القدس، وظهور صاحب العصر والزمان(عج).

☆ ☆ ☆



ليلة تغيّرت فيها معالم الكون

ليلة الجمعة، الطقس في الخارج جليدي، والظلام مخيم على ذلك المساء، فنحن في أواخر جمادى الآخر والقمر مختف تماماً، خرجت والدتي وعمتي إلى منزل الجيران لقراءة دعاء كميل بن زياد، كانت النسوة تقرأن الدعاء وتبكي، خشوعاً، لم أعرف حينها ما سبب هذا البكاء، فقد كنت مسرورة أن أخرج مع أمي، وأشارك الكبار جلستهن، أنهينا الدعاء، وعدنا إلى المنزل، كان الصقيع قد تغلغل إلى عظامنا، فأسرعنا الخطى لكي نصل سريعاً، ونجلس بجانب المدفأة، عندما وصلنا إلى البيت قال إخوتي بأن أبي قد حضر أثناء غيابنا، لم يجلس معهم، فقط سلّم عليهم، وذهب ليشاهد نشرة الأخبار على التلفاز عند الجيران، جلسنا قليلاً بجانب المدفأة، وما كاد الدفء يعود إلى أوصالي حتى طلبت منا أمي أن نتوجه إلى النوم، تلكأت عن الاستجابة لطلبها،

فأنا أكره النوم، أخاف من ذلك الكابوس الذي ما زال يراودني منذ كنت في الثامنة من عمري، سنتان ونصف، والكابوس يلاحقني، كلما اختفى فترة ونسيته، يعاود الظهور.

كنت أرى وكأنني وأخواتي نائمات على فرش ممددة على الأرض، وأمي في وسطنا نائمة، وكنا نستيقظ على صوت ركلة على الباب من رجال مسلحين، فتستوي أمي جالسة، وإذا بالمسلحين يطلقون فوق رأسها ثلاث رصاصات، لم تكن الرصاصات تصيب أحداً، ولكنها دائماً فوق رأس أمي، دائماً ثلاث رصاصات، لم أستطع يومها تفسير هذا الحلم، ولم أستطع أن أخبر به أحداً.

لم يمض على وصولنا إلى البيت نصف ساعة حتى قرع أسماعنا صوت رصاص قريب، صرخت عمتي[1]: «اسمعوا، رصاص» وهي لحظة واحدة كنا بعدها على السطح، صغاراً وكباراً، سمعنا صوت جارنا يصرخ «الله أكبر. . . الله أكبر» نادته عمتي بصوت متهدج خائف: «يا بو علي شو في؟».

(١) عمّة الشيخ راغب.

لكن لم يجبها أحد، وبقي التكبير مستمراً، وبعد لحظة وصل شباب من بيت أحد الجيران راكضين على صوت الرصاص «ماذا يجري يا أبا علي؟».

أجاب أبو علي بصوت يكاد يختنق: «لقد أصيب الشيخ راغب».

لم أفهم معنى هذا الكلام، كلا، فهمت ولكنني لم أصدق ما سمعت، احتضنت أختي الصغيرة، وجلسنا معاً إلى جانب الجدار، انتابني يومها إحساس بالغربة، إحساس ما زال يطاردني إلى اليوم، لا أستطيع أن أطرده.

بعد قليل، وصلت إلى ساحة القرية، أنا لم أركض، ولا أذكر أنني مشيت، لا أعرف كيف وصلت إلى هنا، إلى هذا الحشد الهائل من البشر، الذين ينتظرون عودة الفارس البطل، وقلوبهم تدعو بخشوع، بأمل، عسى أن يعيده الله إلينا سالماً.

كنت واقفة أرتعد، أحضرت لي إحداهن معطفاً، لأنها كانت تظن أنني أرتعد من البرد، ولكنني لا أشعر بالبرد، بل أرتعد من الخوف، من الذهول، من المستقبل المجهول.

بعد انتظار أحسسته دهراً، عادت السيارة من النبطية، لم تقف إلى جانبنا، بل أكملت طريقها إلى النادي الحسيني،

ركض الناس وراء السيارة، لم أركض معهم، بل إنهم سحبوني معهم، فقدماي ما عادتا تقويان على حملي، وفي الحسينية رأيته، على الأكتاف، أمواج من البشر غاضبة تتزاحم حوله، رفعه حاملوه من ناحية صدره فنظرت إليه بعينين مفتوحتين دهشة، خلته يستوي جالساً ويبتسم، خِلتَهُ سيرفع يده محيّياً الجماهير ومُثنِياً على محبتهم.. واستمر خيالي حتى شعرت أنه سوف ينزل إليّ ويأخذني بحضنه، ويضمني إلى صدره، ولكنه عاد إلى النوم ثانية، ابتسم وعاد إلى النوم، فمن هو العاقل الذي يترك جنة الخلد من أجل طفلة.

نظرت إلى الشباب، والنساء، الشيوخ والأطفال، كلهم يرفعون قبضاتهم عالياً، يحاولون الصراخ إلا أن الأصوات كانت تختنق في حناجرهم، فيلفّ المكان صمت رهيب، وكأنه سكون الذهول، أجل، إنه سكون الذهول.

يومها، انطفأت الشمس، اندثر القمر، ذبلت الورود، صمتت العصافير، ماتت الفراشات، ورحل الربيع إلى الأبد، لم يبق في الأفق إلا ظلام، وظلام.





الفهرس

إهـداء ٥
تقديـم ـ بقلم نائب الأمين العام لحزب الله الشيخ نعيم قاسم ٧
مقدمة ١١
على أعتاب الذكريات ١٣
لقد عاد الملاك ١٧
أغنيات على الطريق ٢١
فتى الإسلام ٢٥
همسة ملاك ٢٧
صفعة المحبة ٢٩
ثقة بالنفس ٣١
قبلة على الجبين ٣٣
إيمان أصيل ٣٧
والد ليتيمات زينب عليها السلام ٤٣
المؤذن الصغير ٤٧
أجمل المواعيد ٥١
إيثـار ٥٥
التوكل على اللّه ٥٩
ذكريات من الشرقية ٦٣
القلب الدافئ ٦٩
تواضع الأبطال ٧٣
تؤتي أكلها... شهداء ٧٧
قصة الطهر الذي انتصر ٨٣
بشرى الانتصار ٩٥
ليلة تغيّرت فيها معالم الكون ٩٩